طلاسم التمثيل وخربشات الزمن: قراءة في ومضة رؤية

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

رؤية

تلك اللوحة المعلقة على الجدار تمثلني، لم أفهم طلاسمها.

تجسد ومضة "رؤية[8]" للكاتب السوري بسّام جميدة الفاصلَ الزمني بين صورةِ الذات عندما كانت في لحظة ماضية وليس لها انعكاس إلا في دهاليز الذاكرة وصورتِها في الوقت الحاضر التي تقف حائرة أمام ما يمثل الماضي ولا تستطيع فهمه بالرغم من أنه كان في لحظة ما تام الحضور والحياة

يوجد فاصل زمني ومكاني بين اللوحة وبين الشخص الواقف بعيداً عنها في نفس المكان. كلمة "تلك" تدل على أن الراوي يريد أن يبعد نفسه عن اللوحة ويشير إليها من خلال صيغة إشارية تدل على البعيد. "تمثلني" هنا لا تعبر من وجهة نظري عن وجهة نظر الراوي ولكنها تعبر عن تعريف اللوحة لنفسها بأنها تمثل الراوي. ومن الواضح أن اللوحة تجسد صورة للراوي في مرحلة سابقة من حياته. وأظن أن الفاصل الزمني بين

[8] بسّام جميدة. ويبقى النهر متدفّقًا. مجموعة ومضات قصصية. سلسلة ومضات قصصية. الكتاب الرابع. طبعة ثانية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، أبريل 2015. ص 20.

openkandil.com

الوقت الذي تم تصوير اللوحة فيه وبين الوقت الحاضر يوحي بأن الذاكرة هي الفيصل هنا في عدم الفهم. وعدم الفهم هنا ليس عادياً، فالراوي يدرك أن اللوحة عبارة عن طلاسم وكأنها لشخص غيره. هل هو النسيان؟ هل هو عناد الذاكرة وإمعانها في تعذيب أصحابها بإخفاء ملامحهم عنهم وإخفاء ذكرياتهم ولحظاتهم الفائتة؟ وبالرغم من أن الومضة مروية بزمن الماضي كما نفهم من "لم أفهم"، تظل اللوحة تستفز الراوي من خلال الفعل "تمثلني" الذي يجيء في زمن المضارع بوصفه صفة أو نعتا للوحة، وكأنها تقول له: "ها أنا أمثلك وها أنت لا تفهم ذاتك ولا تستطيع أن تعقد مصالحة بين ماضيك وحاضرك!"

تأكيد الراوي على عدم الفهم يدل على حيرته أثناء وقوفه أمام لوحة هو حاضر فيها بشكل أو بآخر أو أمام مرآة ما حتى لو كانت مرآة تنقل صورة له تنتمي لزمن ماضٍ. وإذا قرنّا ذلك بالطلاسم الموجودة في اللوحة – وهي لم تكن طلاسم في الماضي وإنما صارت الآن كذلك – نجد أن فعل قراءة اللوحة في الزمن الحاضر يتوازى مع الطلاسم الموجودة في النص الخاص بالمصوّر/الرسّام، وكأن النصّ الفني الموجود داخل نص الومضة يتعمد إرباك المتلقي داخل الومضة لدرجة أنه تختلط عليه نفسه ولا يستطيع التعرف عليها.

ويمكننا أن ننظر للراوي داخل الومضة على أنه يبتعد عن ذاته عندما يكتشف أنه لم يعد يستطيع أن يفهمها. فمن الواضح أن الراوي كانت لديه توقعات معينة يستطيع بناء عليها أن يفهم اللوحة التي تمثله، ولهذا أقبل على اللوحة ليتأملها. ولكنه اكتشف أن اللوحة لا تلبّي أي توقّع من هذه التوقعات. وبناء على ذلك أو نتيجة لصدمته، ابتعد عن اللوحة وأشار إليها بـ "تلك" وكأن بعدها المكاني عنه يعكس بعدها عن تمثيله أو التعبير عنه.

يقول منظّرو نظرية التلقي بأن أفق التوقعات عبارة عن الإطار المرجعي الذي يتكون من المعتقدات والقيم والمزاعم والتصورات والرؤى التي تكون حاضرة في أذهاننا عند قراءة عمل فني أو أدبي ما. فعلى سبيل المثال، عندما أقرأ ومضة توجد في ذهني صورة معينة عن الومضة كفنّ له سمات معينة تراكمت في ذاكرتي وذهني من قراءتي لومضات سابقة ولنصوص سردية أخرى تنتمي لأنواع فرعية من فن السرد الذي تنتمي إليه الومضة. ويأتي النص الذي أقرأه ليثبت هذه الرؤية أو يضيف لها ويعدّلها أو يفنّدها أو يلغيها بناء على قدرة المؤلف على تطوير النوع الأدبي محل النظر أو تجديده فيه. وهنا يقف الراوي أمام اللوحة التي تمثل عملا فنيا هنا – وليست صورة مباشرة للذات – ولديه تصوّر ما عن نفسه. ولكن تأمله للوحة/لذاته لا يثبت هذه التوقعات ولا يضيف لها أو يعدلها، ولكنه ينفيها تماماً ويشجبها ويفنّدها ليقف الراوي/ القارئ/ المشاهد حائراً أمام مرآته

الرمزية، فيفضّل أن ينسحب من أمامها مدفوعاً بهذه الصدمة غير المتوقعة التي توحي بأن الإنسان كثيراً ما يقف عاجزاً أمام نفسه ولا يستطيع أن يفهمها أو يفهم علاقته بها.

obeikandl.com